دريد لحام وباسل الخطيب يعيداننا إلى سينما الزمن الجميل

«دمشق - حلب».. انتصار إرادة الحياة والمحبة على كل ما زُرع من ألغام لنسفهما

وائل العدس- تصوير طارق السعدوني

برعاية وحضور وزير الثقافة محمد الأحمد، أطلقت المؤسسة العامة للسينما العرض الخاص بالفيلم الروائي الطويل «دمشق حلب» للمخرج باسل الخطيب، وسط حضور رسمي تمثل بوزير التربية هزوان الوز وسفير جمهورية مصر العربية بدمشق محمد ثروت سليم وعدد من أعضاء السلك الدبلوماسي والفنانين والإعلاميين.

الفيلم من تأليف تليد الخطيب وتمثيل دريد لحام وسلمى المصري وصباح جزائري وكندا حنا وعبد المنعم عمايري وشكران مرتجى ونظلي الرواس وبسام لطفي وربى الحلبي وبلال مارتيني وناصر ورديان وعلاء قاسم ونادين قدور ونيرمين شوقي وعاصم حواط وفاروق الجمعات ووفاء العبد الله وأحمد رافع ولؤي شانا ونور رافع ورشا رستم ومهران نعمو وطارق عبدو وأسامة عكام وحسن دوبا ومجد حنا وسلمى سليمان وسالم بولس ووائل شريفي.

> محمد الأحمد: الأمم العريقة تقدم فناً عظيماً في سنوات الشدة

الزمن الجميل

الفيلم الذي ينتمي لنمط الكوميديا السوداء يروي حكاية رحلة افتراضية في حافلة لنقل الركاب، بين دمشق وحلب تجتمع فيها ثلة من الناس المختلفي التوجهات والأعمار والأهواء، بحيث تشكل صيغة ما عن المجتمع السوري، بما يحمله من تنوع وتعدد في طيف بنيته الاجتماعية.

«عيسى» المذيع السابق يسافر إلى حلب لزيارة ابنته، وفي الحافلة يتصافر جزء من مصيره مع مصائر من وجدهم هناك، وآخرون كانوا على تماس مع هذه الرحلة، بأسلوب لا يخلو من الكوميديا يسير الفيلم في مجراه كاشفاً إيجابيات وسلبيات تعتري بعض تصرفات هؤلاء، ركاب الحافلة يمثلون الانتماء للشعب السوري الواحد المحب للحياة رغم كل الظروف الصعبة التي يعيشها لتنتصر في النهاية إرادة الحياة والمحبة على كل ما زرع من ألغام لنسف هذه الحياة والمحبة.

هذا الفيلم الذي يعد التعاون الأول بين المؤسسة وبين القدير دريد لحام أعاد بنا الذاكرة إلى زمن السينما الجميل، أتيت فيه صاحب شخصية «غوار الطوشة» أنه كالذهب العتيق وقدوة حسنة لكل الممثلين في سورية والوطن العربي بالأداء المرهف والراقي والحساس، وما عزّزه اشتغال المخرج الخطيب دائماً ما يشتغل على أدق التفاصيل التي تشد المشاهد وتسحره.

الشريط مشوق ومميز في بنائه الفني وعمق وإنسانية فكرته، وفيه الكثير من التعبير البصري الذي يحمل شحنة عاطفية عالية، ويرصد حالات اجتماعية وقضايا مبدئية وأخلاقية تعبر عن حالة المواطن السوري بشكل عام، وعن طرق تعايشه مع هذه الأوضاع، مستخدماً بذلك أسلوباً كوميدياً نابعاً من رحم المعاناة وتراجيدية الحياة التي تصل في بعض المواقف إلى حد الكوميديا.

ويمثل الشريط نوعاً من الأفلام الأكثر تعبيرية والأصعب تنفيذاً، لأنه محكوم بجدية الموقف وقوة الأداء وعقلانيته، الذي ينبع منه حس الكوميديا المعبر عن الحالة بشكل متكامل، وهو نوع من أصعب أنواع الفنون، لما يتميز به من خصوصية الحالة والموقف.

كما يحتوي على عدد من الأفكار المهمة التي تحاكي الوضع الراهن في سورية من خلال التناقضات الاجتماعية والمعيشية المختلفة، بحيث كان مختلفاً عن الأعمال التي تحاكي الأزمة بشكل مباشر بحيث تم تسليط الضوء على هذه النواحي بأسلوب كوميدي في زمن وضع المواطنين بمواجهة تحديات مصيرية تؤثر في حياتهم اليومية.

الجانب الخيّر

قال الفنان الكبير دريد لحام إنني أحتفظ في ذاكرتي بكل اللحظات التي قضيناها كفريق عمل واحد، فنحن بدأنا كزملاء وفي منتصف تصوير الفيلم أصبحنا أصدقاء ومع نهاية التصوير كنا أسرة واحدة، وسأستحضر هذه اللحظات كلما أوعزني الفرح.

ورأى أن المؤسسة العامة تحرص على أن تكون جميع أفلامها جادة مشيراً إلى أن فيلم «دمشق حلب» يسلط الضوء على الجانب الخيّر بالعلاقات الاجتماعية، واصفاً العمل بالمميز من خلال التعامل مع المخرج باسل الخطيب الذي يمتلك خبرة سينمائية كبيرة، موضحاً أن الفيلم يناسب المرحلة الحالية في سورية وفي سينماها.

كلاسيكيات السينما

في تصريحه للصحفيين قال وزير الثقافة: إن هذا الفيلم سيبقى بصمة لزمن طويل في السينما، قرأت السيناريو قبل أن يصور وشكل لنا دهشة سينمائية بحيث تفوق على ما كتب على الورق، وهذا تطبيق لمقولة رددناها خلال فترة الأزمة التي عشناها وهي «إن الأمم العريقة تقدم فناً عظيماً في سنوات الشدة، دائماً الدول العريقة تمتحن بثقافتها وبحضارتها وبكل ما تملكه من مخزون ثقافي وحضاري في زمن الشدة».

وتابع: المؤسسة العامة للسينما قدمت أفضل إنتاجاتها السينمائية خلال فترة الأزمنة، وإنتاج أفلامها مختلف دائماً، فالذي يقدمه باسل الخطيب غير الذي يقدمه عبد اللطيف عبد الحميد غير جود سعيد، أصبح لكل فيلم مناخ خاص وسكة خاصة ولون خاص.

وختم: «دمشق حلب» واحد من الأفلام الكبيرة ليس في تاريخ المؤسسة العامة بل على مستوى السينما العربية وسيتحول إلى كلاسيكيات هذه السينما بمرور الوقت.

عبق الأصالة

وفي كلمة ألقاها قبيل عرض الفيلم، أكد مدير المؤسسة العامة للسينما مراد شاهين أن الإنسانية في مبادئها وقيمها وعناوينها العريضة وفي عمقها وأصالتها وتجذرها في النفس البشرية التي فُطر الإنسان عليها، هي بإختصار روح سوريتنا الجميلة وهي جوهر الإنسان السوري الحقيقي الذي ندور من حوله وفي فلكه كل القيم الحقيقية في سموها وشموخها لتكون فيما بعد جزءاً أساسياً من إرثه وحضارته وحقيقته الواضحة وضوح الشمس، والخالدة خلود حقيقتنا والقديمة قدم أصالتنا وحضارتنا العبقة برائحة ترابنا الذي لطالما روته مياه القداسة الزمزمية، فباركته وعمدته وأعطته الحصانة اللازمة للصمود في وجه الرياح العاتيات وسقته أوردة الحياة التي خطت بتلافيفها حدود أطهر بقعة على وجه الأرض، ببساطة هذه هي سوريتنا وهذا هو قدرنا الأبدي في الحفاظ عليها دائماً وأبداً وأن ندفع في سبيلها الغالي والنفيس وأن نبذل في سبيل رفعتها كل ما نستطيع.

وأضاف: تحية لروح كل من بذل دماءه في سبيل الحفاظ على ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتحية لمن بسببه سنحيا لنقص على أحفادنا ما تقوله اليوم، تحية للسواعد السمر لرموز النضال والعطاء أبطال الجيش العربي السوري على كل التضحيات التي قدموها في سبيل رفعة سورية وعزتها، وتحية لمن عرفناه بصموده وصلابته وبقائه على العهد، والذي عبر بهذا البلد إلى بر الأمان وجسد بعطائه وحكمته وصبره روح آبائه وأجداده وروح الوطن وجوهر حقيقته وعبق تاريخه وحضارته السيد الرئيس بشار الأسد.. بك نكبر وبك نلامس هاماتنا رؤوس الجبال.

وتحدث عن الفيلم فقال: فيلمنا اليوم يعبر بكل جزئياته عن إنسانية وضمير وأصالة الإنسان السوري الذي لطالما كان علامةً فارقةً نتميز بها شعبنا عن غيره من الشعوب، حتى وإن تسللت إلى مبادئه بعض المفاهيم الآنية والطارئة على أصالته وحاولت تعكير ذاكرته وتغييبها.

وعرج على بعض الشخصيات بالقول: «عيسى العبدة» هو تلك الأصالة التي لا يمكن أن تُغيّب مهما اشتد قلم الحياة وقسوتها وهو الحضن الحنون وهو الجسر الواصل بين قديم الأمة وحاضرها، و«رشاد» هي عبق الأصالة وتربتة الحياة الجميلة، تتأصل بصمت وتغادر بصمت، و«هدى» هي التاريخ الغائب الحاضر في وجدان «عيسى» أبداً، هم وباقي أفراد الحافلة يجسدون في رحلتهم أصالة هذا الشعب في مختلف المراحل الصعبة التي مر بها وتعرض لها، فشكراً لكل السوريين الشرفاء الذين حافظوا على بريق وعراقة وجمال هذا المجتمع وأصالته.

ثلاثة أسباب

من جهته، قال مخرج الفيلم: عندما كنا نعد الفيلم على الورق اعتقدت أن تنفيذه سيكون صعباً جداً ولكن على أرض الواقع كان من أسهل ما أنجزته لثلاثة أسباب، أولها وجود فريق عمل مميز، والثاني الأجواء الإيجابية التي سادت خلال العمل، وآخرها وأهمها هو وجود الفنان الكبير دريد لحام في هذا الفيلم والذي أعتبره إضافة مهمة لمسيرتي المهنية.

وأردف: وجدت حالة من التعاون والتوافق وأسرة العمل كانت تسهم في اقتراحاتها بكل ودية، وتركت للمخرج حرية الاختيار، كانت تجربة قائمة على التعاون والتفاهم وهو ما جعل منها تجربة أحبها الجمهور، وتملك نسختين للفيلم، نسخة عربية وأخرى إنكليزية، والافتتاح الأول بدمشق أردنا أن نقدمها من دون ترجمة حتى تعرض الصورة من دون وجود أي عنصر يشوهها، لكن في المهرجانات سيدخل عامل الترجمة بأكثر من لغة وكل هذه الأمور جاهزة، وباعتباره أول فيلم سوري يفتتح في مهرجان مصري فهذا إنجاز كبير وهو بداية خير للإنتاج السينمائي السوري.

> مراد شاهين: الفلم يعبر بكل جزئياته عن إنسانية وضمير وأصالة الإنسان السوري

شراكة مستمرة

أما كاتب الفيلم وفي تصريحه أشار إلى أن الفيلم يحتوي على مجموعة أفكار تعبر عن رحلة الإنسان السوري التي يتخللها من صعوبات وتحديات بواجهها وصولاً إلى الخلاص والعودة إلى حياة شبه طبيعية، والقصد بالرحلة من دمشق إلى حلب نقطة البداية والنهاية واختصار للمساحة السورية، وبالنسبة للشراكة مع المخرج فهي مستمرة وبلا شك مريحة وسعيد بها، وشرف كبير للفيلم مشاركة القامة دريد لحام.

قال الممثلون

- صباح الجزائري: أمتلك شغفاً للفن والتمثيل وحب أن أكون على الشاشة سواء دراما أم سينما، وربما أموت إن توقفت عن التمثيل، وأتلقى الأدوار المناسبة لي وأطمح لأدوار أترك بها بصمة سواء بالتلفزيون أم السينما، أما المسرح فاعتزلته منذ زمن بعيد.

- سلمى المصري: أشكر وزير الثقافة على دعمه للسينما وللفنانين الذين يشاركون بالأعمال السينمائية، ففي فترة الأزمة والحرب التي تعرضنا لها استمر إنتاج الأفلام السينمائية التي تعتبر حضارة وواجهة للبلد، والفيلم رائع وجمع كل مقومات النجاح من حيث النص والإخراج والتمثيل، الفيلم يحاكي الأزمة السورية بنكهة مختلفة عن جميع الأفلام التي تم عرضها مسبقاً.

- عبد المنعم عمايري: دائماً ما نجد ما يفاجئنا في السينما لأنها تكون من بصمة المخرج، وأنا أشارك كضيف شرف مع الأستاذ باسل الخطيب والقامة دريد لحام، ومن الصعب أن أتحدث عن شخصيتي في الفيلم، أحاول دعم الأفلام القصيرة التي يقوم بها الشباب كتجربة أولى أو ثانية.

- شكران مرتجى: أنتظر نتيجة تقديم مشهد واحد في الفيلم وبالطبع، كنت أتمنى أن أشارك بمساحة أكبر، لكن مشهدي مع الأستاذ دريد لحام فهو يعبر عن نساء سورية وهو يمثلني، ولذلك أعتبر نفسي من أسرة الفيلم بمشهد أو أكثر، وحتى لو لم أشارك به أبداً فأي عمل سينمائي سوري يمثلنا جميعاً.

- كندا حنا: شعرت بمسؤولية كبيرة تخللها بعض الخوف عندما قيمني الأستاذ دريد لحام، وأتمنى أن أنجز ربع ما أنجزه بمسيرته الفنية، وواجهت صعوبة لأتمكن من الحفاظ على المستوى الذي وصلت إليه وأتمنى أن تكون النتائج مرضية.

- نظلي الرواس: أحببت التجربة وكنت سعيدة بها، كما أحببت تفاعل الجمهور الذي يثبت أن الفلم لامس واقع الشعب، وبالنسبة لشخصيتي فتؤدي رسالة بأنه يجب ألا نحكم على الناس من مظاهرهم الخارجية، وأننا شعب لا يزال موجوداً بقوة.

- رشا رستم: هذه ثاني مشاركة لي مع باسل الخطيب في مجال السينما، لاحظنا نتائج إيجابية من خلال ردود أفعال الجمهور الذي تابع الفيلم وهي مرضية، وضحت رسالة شخصيتي بأن الشعب السوري يساعد ويساند بعضه بعضاً ليخرج من كل المحن.

سوق مدحت باشا أطول الأسواق الدمشقية وأكثر جمالاً

منير كيال

يمكن القول إن سوق مدحت باشا، أطول أسواق مدينة دمشق القديمة، فهو يشطر مدينة دمشق القديمة شرقاً بغرب، ويوصل بين الباب الشرقي وباب الجابية لمدينة دمشق ويعرف باسم الطريق المستقيم.

كان عن يمين ويسار هذا السوق رواق بعرض ٦،٨ أمتار، فيستخدم أحد الرواقين من يتجه شرقاً ويستخدم الرواق الآخر من يتجه غرباً، كما يتخذ هذان الرواقان للبيع والشراء. أما القسم الأوسط من الطريق المستقيم فهو لقضاء الناس حاجاتهم، كما كان هذا الطريق يتباعد عند قوس النصر، الذي لا يزال قائماً بمحلة الخراب من مدينة دمشق، فضلاً عن ذلك فقد كان هذا الطريق المستقيم يتعامد مع طريق آخر يقطع مدينة دمشق من الشمال إلى الجنوب.

يعود إنشاء سوق مدحت باشا، إلى زمن الرومان سنة ٦٤ ق.م وقد جعلوا على جانبي هذا السوق صفين من الأعمدة التي من الطراز الكورنثي وذلك على غرار ما كان لجميع مدنهم. وقد عرف الجانب الغربي من هذا السوق باسم سوق جقمق زمن المماليك، وذلك نسبة إلى نائب السلطنة المملوكي جقمق، وهو الذي تنسب له المدرسة الجقمقية وخان جقمق بسوق مدحت باشا.

أما إطلاق تسمية مدحت باشا على هذا السوق، فهو نسبة إلى الوالي العثماني مدحت باشا، الذي قام بتوسيع السوق، بعد أن قام بإحراق العديد من الدور، التي كانت بموقع التوسعة، ثم قام الوالي العثماني ناظم باشا بتغطية السوق بالحديد والقوطاء سنة ١٨٩٠ م حماية له من الحريق، بعد أن كان السقف من الخشب زمن المماليك.

لكن ذلك لم يمنع من احتراق سوق مدحت باشا سنة ١٩٢٥ م بفعل قصف القوات الفرنسية المستعمرة لسورية خلال قصفها منطقة سيدي عامود خلال الثورة السورية الكبرى، فاحترقت سيدي عامود وأصبح اسمها الحريقة.

وقد كان يطلق على السوق زمن المماليك سوق جقمق نسبة لخان جقمق الذي بهذا السوق.

ومن جهة أخرى، فإن كلا من سوق مدحت باشا وسوق الحميدية، أقرب إلى التوازي بالاتجاه من الشرق إلى الغرب، إلا أن سوق مدحت باشا أكثر طولاً من سوق الحميدية، وتمتد هذه الزيادة من مكان تفرع سوق البزورية عن سوق مدحت باشا وحتى الباب الشرقي، وهي المنطقة غير المغطاة من سوق مدحت باشا.

ونجد بسوق مدحت باشا مشيدات تعود إلى العصر المملوكي، ومشيدات تعود إلى العصر العثماني، وتذكر من مشيدات العصر المملوكي، جامع سيدي هشام الذي يتميز بمئذنته البديعة، وإطلالها على سوق الصدف، وخان الدكة وخان جقمق.

أما مشيدات العصر العثماني، فكان منها: خان سليمان باشا، وخان الزيت الكائن بين خان الدكة، وخان جقمق المملوكيين، وقد تميزت هذه الخانات، بأبوابها المشرعة وأقواسها البديعة.

يتفرع عن سوق مدحت باشا تفرعات عدة، منها

ما كان بالجانب الشمالي من هذا السوق، ومنها ما كان بالجانب الجنوبي منه.

فمن التفرعات التي بالجانب الشمالي من سوق مدحت باشا ما كان منها يوصل إلى الحريقة، كتفرع نزلة حمام القاضي، ثم تفرع سوق الحرير والخياطين الموصلين إلى بداية سوق الحميدية الشرقية وبالاتجاه شرقاً تصل إلى تفرع البزورية، ثم التفرع إلى مكتب عنبر، وهو بزقاق الممتحنة من حي الخراب، وتسمية مكتب عنبر هي نسبة لدار يوسف عنبر، وهو أحد أثرياء مدينة دمشق، وقد شيد الطابق الأول من هذه الدار سنة ١٨٩٧ م، ثم استملكت الدار لدين عليه، وبعد ذلك تحول البناء إلى مدرسة سنة ١٨٨٩ م، عرفت باسم مكتب عنبر، وكان لهذه المدرسة شأن بالحركة الثقافية والنضوج القومي بأوائل القرن العشرين، ثم تحول البناء إلى مدرسة للفنون النسوية، ثم جعلته وزارة الثقافة قصراً للثقافة.

وبعد تفرع مكتب عنبر سوق مدحت باشا تصل إلى تفرع يوصلنا إلى حارة الخمارات المؤدية إلى حي القيمرية، وبعد ذلك لا تجد تفرعاً بالجانب الشمالي لسوق مدحت باشا إلا التفرع الذي عند القشلة، وهو التفرع المؤدي إلى باب توما.

ونجد إلى الشرق من تفرع سوق البزورية موقعاً بسوق مدحت باشا يعرف باسم مئذنة الشحم، وقد كانت تسميتها نسبة إلى مئذنة الشحم وذلك لما يصنع بها من صناعة يدخل بتركيبها الشحم، كالصابون والشمع وهذا الموقع بالغرب من مسجد صغير يعود إلى العهد المملوكي. وبقية الشحم قبة أو مئذنة هي أعلى موقع بمدينة دمشق القديمة وهذا الموقع هو المعروف باسم تلة السماكة التي تعتبر شاهداً على تشكل مدينة دمشق منذ آلاف السنين.

وعلى الجانب الجنوبي من سوق مدحت باشا تفرعات نذكر منها تفرع سوق عند البداية الغربية لسوق مدحت باشا نذكر منها: سوق النسوان عند باب الجابية، وهو يوازي سوق مدحت باشا، بامتداده من الغرب إلى الشرق بين سوق السكرية وسوق القطن، وعن هذا السوق يتفرع سوق البالة عند مدخل زقاق البرغل.

ونجد بهذا الجانب الجنوبي من سوق مدحت باشا تفرعاً يقابل سوق البزورية، وهو تفرع الدقاقين الموصل عبر شارع حسن الخراط إلى الباب الصغير أو باب الحديد الذي يفصل بين قسمي حي الشاغور البراني والجواني.